فلقد مرغ أنف كبير المخزوميّين في التراب، ولم يبق بيت في مكة إلاّ دخلته قصة ذاك الإذلال. قيل: عاد حمزة يوماً من قنصه وفي عمامته ـ على مألوف عادته ـ ريشات تعلمه، كأنّها تاج يومئ إلى شدّة بأسه، واعتزازه بنفسه، فما انطلق إلى بيت الله ليطوف ـ كما اعتاد ـ قبل أن يذهب إلى داره بعد إيّابه من رحلاته، حتّى سمع دبيب أقدام امرأتين تمشيان خلفه، تقول إحداهما لصاحبتها: لو علم ماذا صنع أبو جهل بابن أخيه فأقصر عن مشيته، ثم التفت إليهما، يسأل: وما ذاك؟ فعلم منهما، ومن غيرهما ما ساءه، قيل: صبّ أبو جهل على رأس محمد التراب ... ألقى عليه فرثاً، وقيل: وطئ برجله على عاتقه. فملكه الغضب، ومضى متوشّحاً بسيفه إلى أبي جهل بنادي قريش، في المسجد حيث يسمر وأئمة الكفر من رفاقه، حتّى إذا وقف عند رأسه، رفع قوسه وضربه به فشجّه شجّةً منكرةً، وصاح به: أتفعل ذلك بابن أخي؟ فبهت العقل الزنيم، وقال بلهجة تنضح بذلّه وصغاره قبل أن تفصح عن أسفه واعتذاره: يا أبا عمارة، لقد سفّه عقولنا، وسبّ آلهتنا. فعصف حمزة وصريف أسنانه يترجم عن غيظه: ومن أسفه منكم؟ إنّي على دينه، أقول ما يقول، فردّ عليّ ذلك إن استطعت. عندئذ قام رجال من بني مخزوم يحاولون مناصرة سيّدهم، كأنّما ليعيدوا إليه بعض ما أُريق من كبريائه تحت الأقدام، قال قائلهم: ما نراك إلاّ صبأت يا أبا عمارة فلم يبال كثرتهم، بل تحدّاهم: وما يمنعني وقد استبان لي منه؟ أنا أشهد أنّه رسول الله، وأنّ الذي يقوله حقّ، فامنعوني إن كنتم صادقين. فاستخزى أبو جهل، وأحسّ التخاذل، فآثر الانسحاب، قال لأصحابه المناصرين: دعوا أبا عمارة، فإنّي والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً، فكفّوا[477].